



الحياة الليتورجية لكنييسة الإسكندرية^(١) (٢)



القرن الثالث الميلادي

بدء ظهور الكنائس على سطح الأرض:

حينما حلَّ سلامٌ مؤقتٌ في أيام جالينوس حوالي سنة ٢٦٢م، بدأت الكنائس تظهر على سطح الأرض. ولكن ما لبث أن ثار اضطهاد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م) سنة ٣٠٣م، حتى كان هدم الكنائس عُصراً أساسياً فيه. ويُعرَف من سيرة البابا ثيؤناس (٢٨٢ - ٣٠٠م)، أنَّه أوَّل بابا يُذكر عنه أنه بنى كنيسة، وكانت على اسم السيدة العذراء بالإسكندرية. ويُشير القديس إبيفانيوس (٣١٥ - ٤٠٣م)، في كتابه "ضد الهرطقات"، والذي كتبه سنة ٣٧٥م، إلى وجود عشر كنائس، كانت قائمة في مدينة الإسكندرية في زمانه. ومن أشهر هذه الكنائس "كنيسة البوكاليا"، وهي موضع استشهاد القديس مرقس الرسول. ويُذكر أيضًا كنيسة البابا ديونيسيوس (٢٤٦ - ٢٦٤م)، كنيسة البابا ثيؤناس (٢٨٢ - ٣٠٠م)، والتي تحوَّلت إلى جامع عُرف باسم "الجامع ذو الألف عمود". وفي مصر القديمة بُنيت أقدم كنيسة بحصن بابليون، باسم سرجيوس وواخس.

الملاحم الليتورجية للكنيسة الإسكندرية في القرن الثالث (الميلادي)

عند العلامة كليمنس الإسكندري:

للعلامة كليمنس (١٥٠ - ٢١٥م)، ثلاثة كُتُب أشهرها: "دعوة لليونانيين"، "المُرِّي"، "المُتَفَرِّقات"، ومن هذه الكتابات نتعرَّف على الممارسات الليتورجية التي كانت على أيامه.

+ كانت هناك "أوقات مُحدَّدة للصَّلاة"، في ساعات الثالثة والسادسة والتاسعة، كذلك في ساعة الاستيقاظ من النوم، وقبل الإيواء للفراش، وأثناء الليل. ولكن لم يُعرَف إن كان يقصد بذلك صلاة فردية خاصة، أو خدمة عامة يومية يجتمع فيها الشَّعب بأكمله في الكنيسة.

+ وعن كيفية الذهاب للكنيسة يقول:

(١) نستكمل في هذا العدد ما بدأناه في العدد السابق عن تقديم موجز عن التاريخ الليتورجي لكنيسة الإسكندرية، وهو عن كتاب للراهب أناسيوس المقاري، صدر بنفس الاسم، سنة ٢٠١٨.

[النساء والرجال، عليهم أن يذهبوا للكنيسة بهدوء ونظام وسكون، وفيهم محبة صادقة، أطهارًا بالجسد، وأطهارًا بالقلب، لكي يكونوا لائقين للصلاة أمام الله. وعلى النساء، بوجهٍ خصوصي، أن يلتفتن إلى ذلك بالأكثر. ولتكن المرأة مغطاة ... وهكذا كُلُّ مَنْ كرّس نفسه للمسيح، عليه أن يسلك خارج الكنيسة، بنفس السلوك الذي كان عليه داخلها].

+ ويتكلم العلامة كليمنديس الإسكندري عن استقرار الدرجات الكهنوتية الثلاث في كنيسة الإسكندرية، منذ ذلك الوقت المبكر من تاريخها، وهي درجات الأسقفية والقسيسية والشماسية.

+ كما يتحدث أيضًا عن صلاة الشكر، ثم قراءات من فصول كتابية في الكنيسة، يتبعها العظة، ثم عن القداس الإلهي، ثم عن التسبيح أثناء التناول، وأخيرًا البركة الختامية.

+ ومن كتاباته ترد إلينا أول إشارة عن طريقة ممارسة القبلية المقدسة في القداس الإلهي. وأيضًا عن الوقت الذي بدأت تتحول فيه القبلية من التقبيل بالفم، إلى المصافحة باليد فقط.

+ يُقدم لنا العلامة كليمنديس أقدم إشارة عن التسبيح بالمزمور المائة والخمسين في كنيسة الإسكندرية، وأيضًا عن التقليد القديم المستقر في عدم استخدام الآلات الموسيقية أثناء الصلاة.

+ وهو أول من أشار إلى ممارسة صومى الأربعاء والجمعة، كذلك حفظ يوم الرب، لأنه يوم القيامة.

+ كذلك أشار إلى وقت إقامة الأسرار، بأن يكون في الليل، إشارة لانطلاق النفس من الجسد التي تحدث ليلاً. كذلك قدم أقدم إشارة عن ضرورة الصلاة شرقًا. فالاتجاه للشرق في الصلاة، هو رمزٌ للمسيح شمس البر ونور العالم. وكما أن النور يأتي من الشرق، ويُضيء إلى أقصى الغرب؛ هكذا يكون مجيء ابن الإنسان (مت ٢٤: ٢٧).

عند العلامة أوريجانوس:

العلامة أوريجانوس (١٨٥ - ٢٥٤م)، هو أكبر عقلية أنجبها الكنيسة على الإطلاق. في عصره برزت مدرسة الإسكندرية المسيحية، والتي اشتهرت باسم: "مدرسة الموعوظين"، وصارت أول مدرسة لاهوتية في العالم المسيحي، تُدرّس فيها العلوم الدينية، إلى جانب العلوم الدنيوية أيضًا، كالطب والهندسة والموسيقى والفنون والفلسفة، لكي تُنافس مدرسة الإسكندرية الوثنية. وقام العلامة أوريجانوس بتطوير نظام مدرسة الموعوظين، إذ قام بتقسيم المدرسة إلى قسمين:

القسم الأول، جعله لتعليم المبتدئين؛ والقسم الآخر، لتعليم المتقدمين، أي الذين بلغوا درجة فكرية متقدمة.

إن دراسة كتابات العلامة أوريجانوس، تكشف لنا أنه هو الذي نحت أو صاغ كافة التعبيرات اللاهوتية التي عُرفت في الكنيسة الجامعة بعد ذلك. بل لم يُضف آباء الكنيسة من بعده شيئاً يُذكر.

+ يتكلم العلامة أوريجانوس عن الاتجاه للشرق في الصلاة، مُعللاً ما سبق وقاله العلامة كليمنديس.

+ يُطلعنا على تقليد الكنيسة القديم، الذي يبدأ الصلاة بالدُّوكصا، ويختمها بالدُّوكصا أيضاً، وهو نفس ما تُمارسه الكنيسة حتى اليوم، سواء في ليتورجية القداش، أو في صلوات السّواعي.

+ يشرح أن الاعتراف بالخطايا في زمانه كان على مستويين: الأوّل، العلني أمام الجماعة، وهو الأقدم في الكنيسة؛ والثاني، هو على المستوى السّري، أي الاعتراف الشّفهي على الكاهن.

+ يُشير إلى عادة، بطلت منذ زمانه، وهي غسل الرّجلين قبل الإفخارستيا. أمّا عادة غسل اليدين، قبل الصلاة، فهي ظلت سارية حتى اليوم، سواء قبل الصلاة في البيت أو في الكنيسة.

+ يذكر أنه توجد في القداش أواشي لأهوية السماء، وثمرات الأرض، ومياه الأنهار، مُعتبراً أن لكلّ منها ملائكة مُخصّصين. كما يُشير إلى أوشية الراقدين، وأوشية الملك، وأوشية القرايين.

+ يُنبّه المتناولين من الأسرار المقدّسة، على الحرص والاجتهاد. ويُحذّر الكهنة والشّممامسة الذين يُساعدون في إقامة الأسرار ويحملون جسد الرّب، أن يكونوا في انتباه شديد، لئلا يقع جزءٌ منه على الأرض، أو يضيع أجزاء من القرايين، أو تغيب عن نظرهم، إذ يقول: "احسبوا هذا جريمة".

+ أوّل مَنْ أشار أن المسيحية قد انتشرت على طول البلاد، أي يقصد المصريين خارجاً عن مدينة الإسكندرية.

+ يُعدّد العلامة أوريجانوس طرائق مغفرة الخطايا: ١- المعمودية. ٢- تحمّل الاستشهاد.

٣- خلال الصَّدقة. ٤- مغفرتنا لخطايا إخوتنا: ٥- مَنْ يردُّ خاطئًا عن ضلال طريقه. ٦- غزارة المحبة للآخرين. ٧- أعمال التوبة. ٨- تناول من جسد الرَّبِّ ودمه الكريمين.

عند البابا ديونيسيوس الكبير (٢٤٦-٢٦٤م):

+ هذا البابا هو أوَّل بابا إسكندري له كتابات ورسائل تكشف عن فصاحة الأسلوب وعذوبته، وهي تُعدُّ من أوائل الإشارات الليتورجية الموثقة. حارب بدعة "المُلك الألفي"، تلك التي انتشرت في الفيوم، فقد ادَّعي أسقفها بأن المسيح سوف يملك على الأرض ألف سنة! وحدث انشقاقٌ، بل ارتداد كنائس برُمَّتْها، لكن استطاع البابا ديونيسيوس أن يُعيد الجميع إلى الإيمان الصَّحيح.

+ وقد نَمَت الكنيسة بسرعة في زمان هذا البابا. وحدث تحوُّل من استخدام اللغة اليونانية إلى استخدام اللغة القبطية في الكرازة المسيحية لعامة الشعب من الأقباط.

آثار المسيحيين الأوائل من أصل يهودي

على كنيسة الإسكندرية في القرن الثالث الميلادي:

+ غالبًا كان للمسيحيين من أصل يهودي تأثيرٌ خطير وكبير على الكنيسة في بداية القرن الثالث، حتى أن العلامة كليمنس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م) كتب مؤلفًا عن "القانون الكنسي" أو "ضد المتهودين"، أي المسيحيين المُتمسِّكين بالعوائد اليهودية.

+ يُحذِّر العلامة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) من الممارسات اليهودية مثل: الختان والصوم. ويتحدث عن مسيحيين يذهبون إلى كلِّ من المجمع اليهودي والكنيسة. كما يتحدَّث أيضًا بكل وضوح عن مسيحيين من أصل يهودي، كجماعةٍ مستقلة. ويقول بأن عددهم لا يتعدَّى مائة وأربعة وأربعون ألفًا، المذكورين في سفر الرؤيا.

+ كان "إنجيل العبرانيين" منتشرًا في كنيسة مصر، وهو من أوضح الأدلة التي تُشير إلى استمرار اليهود المؤمنين بالمسيح في صبغ طقوسهم اليهودية بصبغةٍ مسيحية. فهو الإنجيل ذو الأصل اليهودي المسيحي الذي جرى تداوله في فلسطين، وكانت فيه شخصية يسوع التاريخية ذات أهمية قصوى. وهو ذاته الذي عرّفه اليهود المسيحيون الأوائل في مصر، وإن لم تكن به شائبة غنوسية.

(يتبع)

